رسالة الشباب فى مصر

لصاحب السعادة توفيق دوس باشا

" أنتم حملة المشاعل وكثيرون ينتظرون الضوء الذى تحملون ليهتدوا به فى طريق الحياة ، فلا تطيلوا انتظارهم ... " من الرسالة الملكية السامية الى شباب الجامعات والمدارس .

سيداتى . سادتى

يجمع حفلنا هذا عددا غفيرا من طلاب وطالبات هذه الكلية وكلهم من الشباب . وقد أتم بعضهم دراستهم وحصلوا على اجازة يسمونها " الدبلوم " اصطلح الناس على اعتبارها خاتمة مايجب عليهم علمه . على أن هذا فى الواقع خطأ كل الخطأ . فان تلك الأجازة النهائية ان هى الا بداءة مايجب على الشباب علمه وعمله . مثلها فيما يتعلق بالحياة العملية مثل القراءة والكتابة فيما يتعلق بالحياة العلمية . يبدأ الطفل حياته العلمية بان يدرس الأبجدية ، ثم مبادئ القراءة والكتابة ، وعند ئذ يكون هما الوسيلة لبدء حياته العلمية . كذلك " الدبلوم " ياحضرات الطلبة وياحضرات الطالبات ان هى الا أبجدية حياتكم العلمية وعند ماتخرجون من هذه الكلية وقد انتهيتم من دراسة أبجدية الحياة ندخلون غمارها لتتعلموا دروسا بعضها غاية فى الصعوبة وقليل السهل منها . واذا لم تنجحوا فى سبر غور تلك الدروس واذا لم تصلوا الى أعماق مشاكل الحياة فعبثا قضيتم حياتكم فى هذه الكلية . وعبثا صرفتم مجهوداتكم التى وصلتم بها الى الورقة التى تسمونها " الدبلوم " .

إن للشباب فى كل بلدان العالم وفى كل زمان من الأزمان رسالة فى الحياة يجب عليه ان يقوم بها . على أن البيئة التى نحن فيها وحقبة الزمن التى نجتازها تجعل رسالة شبابنا أعظم من غيرها وأكبر من سواها . رسالة الشباب فى مصر رسالة قد تظهر ثقيلة وثقيلة جدا ، ولكنكم تعلمتم فى هذا المعهد تلك الأبجدية التى سلحتكم تسليحا أقوى من تسليح غيركم للقيام بأداء هذه الرسالة . هذا عن البيئة . أما عن حقبة الزمن التى نجتازها فقد أضافت على أكتافكم عبئا آخر . ذلك أننا قد خرجنا منذ أيام من حرب ضروس أهلكت الحرث والنسل وحرقت الأخضر واليابس . لا يهمنى من هذا — على أهميته — ما دمرت من المصانع والدور وماخربت من المدن الآهلة والبلدان العامرة ، ولا ما أزهقت من أرواح الشباب وأيتمت

---

* " الكلمة التى ألقاها سعادته فى محفل اختتام العام الدراسى للكلية الأمريكية بأسيوط "

من الأرامل ويتمت من الأطفال . كل هذا خطير جدا ولكن خطره ينقضي بانقضاء هذا الجيل . إنما كان للحرب أثر آخر لابد أنكم أدركتموه وشعرتم بثقل وطأته . ذلك هو ما أنتجته الحرب من التدهور في الأخلاق والاختلال في الصفات الكريمة التي كان يتحلى بها المتمدينون قبل الحرب . لقد تفككت الأسر ، وتصدعت البيوت ، فالأب يخوض المعركة ، والأم تعمل في مصانع الذخيرة ، والولد والبنت متروكان بغير رقيب . كذلك دور الأعمال وما أصاب الناس من جنون الكسب غير المشروع ، مما شجعهم على السرقة والتزوير وابتزاز المال الحرام ، ومما ملأ أخبار المحاكم العسكرية بالألوف من القضايا بينها عدد ليس بالقليل نرى بين المتهمين فيها عددا من الأشخاص الذين كنا نحسبهم أبعد ما يكونون عن مثل هـــذه النقائص وتلك العيوب . ولقد صدق البارون فون هوجل حينما قال : إن الحياة الأوروبية رجعت القهقرى ثلاثين عاما على أثر حروب نابليون" .

أمام هـذين الظرفين — ظرف تأخير بيئتنا المصرية عن زميلاتها في أوربا وأمريكا ، وظرف ما زادته الحرب عليها من تدهـور وانحطاط وانحلال — تتضاعف عندنا رسالة الشباب ويتضاعف واجب الشباب ويتضاعف عبء الشباب .

هذا فيما يتعلق بالأخلاق . على أن الحـرب خلقت مشاكل أخرى عنيفة صعبة الحلول غير مشكلة الأخلاق . ولقد شعر العالم أجمع بقيمة هـذه المشاكل فعقدت الدول الكبرى المؤتمر يتلو المؤتمر لحلها ولم يصلوا إلى الآن إلا إلى حلول مبتسرة ينقض أحدها ثانيها ، كما أنهم لم يتفقوا فيما بينهم على كثير من تلك الحلول . يهمنا نحن في وسطنا هـذا ما يتعلق بمصر ولديها من مشاكلنا الخاصة ما يكفيها بحثة دون حاجة إلى تعرضها لمشاكل الآخرين . فعندنا مشكلة التعطل بعد الحرب . هناك ألوف بل مئات الألوف من العمال كانوا يعملون في جيوش الحلفاء وسيستغنى عن خدماتهم بطبيعة الحال متى بطلت قعقعة المدافع وجعجعة السيوف . فماذا يكون حالهم ؟ وكيف يعيشون ؟ ولدينا مشكلة الصناعة بعد الحرب . لقد ازدهرت في مصر أثناء الحرب صناعات جمة لم يكن لنا يد فيها من قبل . كما نجحت نجاحا كبيرا صناعات لم تكن ناجحة قبل الحـرب . فكان من أسباب ازدهار تلك ونجاح هذه بل أهم أسباب ذلك الازدهار والنجاح انقطاع الوارد من مثل ما تنتجه من البلاد الأجنبية ، فماذا يكون حالها إذا غمرت أسواقنا تلك البضائع متى عادت البلاد الأوربية والأمريكية إلى سابق إنتاجها . وماذا يكون مصير رؤوس الأموال الكبيرة التي تكونت بها تلك الصناعات وماذا يكون مصير الآلاف من العمال الفنيين وغير الفنيين ممن يشتغلون فيها . ولدينا مشكلة النقد والاقتصاد وهي جزء من مشكلة النقـد والاقتصاد في العالم . لقـد كان أساس رواج النقد (البنكنوت) أن يكون له غطاء من الذهب أو ما يماثل الذهب يعادل نصف قيمته أو ثلثها

على الأقل . والذهب فى العالم كله خمسة مليارات من الجنيهات أو يزيد عنها قليلا . فى حين أن ورق النقد قد بلغ فى سنة ١٩٤٤ سبعمائة وخمسين مليارا . فالذهب اذن يعادل ٢/٣ من واحد فى المائة من قيمته . فكيف تكون الحال فى المستقبل بالنسبة لما اخرجته المطابع فى زمن الحرب . وهنالك مشاكلنا الاجتماعية بما ينطوى تحت هذه الكلمة من تفصيلات لاحد لها . فالفلاح المصرى يعيش عيش البؤس والفاقة وهو أسير المصائب الثلاثة : الفقر ، والجهل ، والمرض . ويترتب على ذلك نقص عظيم فى إنتاجنا القومى بنقص تلك القوى العاملة فى ذلك الإنتاج . ولقد فعلنا القليل عن طريق التشريع والأقل عن طريق الجمعيات الخيرية والجمعيات التعاونية فى القضاء على تلك الحالة ، ولكننا ما زلنا بعيدين جدا عن الهدف . إلى غير ذلك من المشاكل الكبرى التى لا يسمح لى الوقت بعرضها أو التى لا أرى محلا لخوض فيها هنا كمشكلتنا السياسية ومركز مصر بعد الحرب ، وأمامنا فى المستقبل تلك الآمال التى نرجو بحق الوصول إليها وقد شاركنا فى الحرب منذ بدئها مشاركة فعلية ، ولو لم نكن أعلناها الاعلان الاسمى فى ذلك التاريخ .

هذه هى بعض مشاكل الحياة التى ستواجهكم أيها الشباب عندما تخوضون غمار الحياة العملية . فما هى الرسالة التى يجب عليكم أن تقوموا بها للمشاركة فى حل هذه المشكلات . لا ترو عنكم خطورتها ولا تروعنكم كثرتها ولا يروعنكم تشعبها . فاست أطلب منكم المستحيل « لا يكلف الله نفسا الا وسعها » .

لا أطلب منكم فيما يتعلق بالاخلاق ان يكون كل منكم فى عدل « عمر بن الخطاب » ولا شهامة « صلاح الدين » ولا وفاء « السموءل » ، ولا أطلب منكم أن تقصروا حياتكم على التبشير بالمبادئ القويمة والأخلاق العالية . بل أطلب من كل منكم شابا أو شابة أن يسعى جهده ليكون قريبا من المثل العليا ما أمكنه ذلك ليكون قدوة يحتذيها الآخرون . لا أطلب منكم الا تقتلوا ولا تسرقوا ولا تزوروا لأنى أعتقد انكم أبعد الناس عن هذه النقائص بما رضعتم من لبان الأخلاق فى معهدكم هذا ، ولكننى أعتقد أن كثيرا منا يرتكب هذه الجرائم باللسان والفكر والقلب ، وقد اعتدنا أن نعتبر أمثال هذه من الهفوات الهينات ولكنها فى الواقع كنظائرها من الجرائم الكبرى فى خطورتها ونتائجها .

لا يأخذنكم الغرور بأنكم وصلتم إلى أعلى مدارج الحياة ، فان الغرور هو أول درجات السقوط الى الهاوية ، اذ هو يولد فى صاحبه الخيلاء والاعجاب بالنفس ليحمله بدلا من أن يسعى الى ترقية نفسه وتحسين حاله أن يعتقد فى نفسه متى خرج إلى مسرح الحياة أنه وصل الى الكمال ، وعندئذ يأخذ فى النقص التدريجى حتى يصل الى القاع

يجب عليكم وقد بدأتم تخوضون غمار الحياة أن تكونوا رسل الأخلاق الفاضلة كل منكم فى البيئة التى يختيرها لحياته . فمن أراد اتمام دراسته العليا فى معهد آخر وجب عليه أن يشيع فى جو ذلك المعهد ما رضعه من لبان الخلق الفاضل وأن ينشر النور الذى قبسه أثناء صلته باساتذته المحترمين فى هذه الكلية . ومن عمد الى الأعمال الحرة أو سلك سبل الخدمة الحكومية أو الفردية فليضع أمام عينيه ما ذكرته لكم من محاولة أن يكون أقرب ما يستطيع نحو المثل الأعلى .

أما فى المشاكل الأخرى كمشكلة التعطل ومشكلة الصناعة ومشكلة الاقتصاد والنقد فانى لا أطالب أن يكون كل منكم "المستر بيفردج" أو "طلعت حرب" . انما الذى أطلبه منكم أن لا تستهينوا بجهود اتكم على أنها ضعيفة أو فقيرة أو أنه تعوزكم الوسائل للاصلاح أو غير ذلك ، قلت لكم فيما مضى أن الغرور من شر الصفات التى يمكن أن يتصف بها الشاب فى حياته والآن أكمل لكم هذه النظرية : إن عدم الثقة بالنفس ضعف ووهن فليس من وسيلة الى أن تصبح حقيرا أقرب من أن تظن نفسك حقيرا . كل ما تروونه من الأعمال الضخمة فى هذه الحياة بدأ صغيرا والشجرة الهائلة التى تظل بفروعها العشرات من الناس بدأت بذرة لو دستها بقدمك لما شعرت بها . اقرأوا كل ما يصل الى أيديكم من الأبحاث الخاصة بهذه المشاكل وغيرها . اقرأوه بتمعن وفكروا فيه ثم فكروا وفكروا وحاولوا العمل فان أخفقتم فلا تياسوا وقديما قال "مصطفى كامل" بحق طيب الثرى : "لا معنى للحياة مع اليأس ولا معنى لليأس مع الحياة" .

أما المشاكل الاجتماعية فانتم أولى من يشترك فى حلها . أنتم أولى من يأخذ بيد الفلاح ليرشده الى الخروج من ظلمات الجهل الى الضوء والنور وليقذه من كوارث المرض الى نعمة الصحة والعافية واذا فعلتم هذا فقد أصبتم عصفورين بحجر واحد . لقد خدمتم الفرد وخدمتم المجتمع . أما خدمة الفرد فأمرها ظاهر ، وأما خدمة المجتمع فبأن تضيفوا الى عناصر انتاجه عناصر جديدة من سواعد قوية وأيد عاملة . كلنا فلاحون ولكل منا اتصال مباشر أو غير مباشر باولئك القرويين التعساء ولو عمل كل منا فى محيطه على قدر مجهوده لأدهشتكم النتيجة التى نصل اليها .

انتشروا فى قراكم لتنشروا ما تعلمتم وتذيعوا ما وعيتم ، فتنفعوا بالعلم أهليكم ومواطنيكم فانها ضريبة الوطن تقدمونها وزكاة العلم تؤدونها ، إنكم بهذا تقومون بمهمة جيش الخلاص بين أولئك الجهلة التعساء .

الشباب هم العصب فى كل أمة . وهم محور القوة فى كل دولة ، وعلى سواعدهم يتقرر مصير الشعوب . إن فى أعناقهم لمصريا لها واجبا مقدسا نحو دا هو أن تخلقوا فيها جيلا جديدا

لا يكفيه أن يتغنى بما كان عليه أجداده الفاتحون ولا يكفيه أن يتغنى بما أفرضته مصر القديمة من الحضارة لدول العالم ولا يكفيه أن يقول كان أبى بل يجب عليه أن يقول " هأنذا "، وقد انتهت والحمد لله تلك المأساة العالمية التى وقفت فيها جياد الحضارة عن السبق فى ميدان الرقى الانسانى، وستعود فى القريب العاجل الى ميدان التسابق فهيئوا جيادكم واسرجوها واعتلوا صهوتها هدفكم مصر الحديثة ومكانها بين دول العالم . لقد بذلت الدول دماء شبابها فى ميادين الوغى ولكن الله لطف بمصر فحفظ لها شبابها ، فابذلوه فى ميدان السلام وهى لا تقل خطرا عن مهمات الحرب والصدام ، ووجوهكم قبلة الوطن والوطن وحده تتجهون اليه بوجدانكم وجهودكم وقلوبكم لا يقفكم ما تلقون فى طريقكم من صخور وأشواك .

دعوا التراخى والكسل والخمول واقدموا على المغامرة والابتكار والطموح واسلكوا موارد الرزق الواسعة المحتاجة الى الصبر والمثابرة واليقين .

سمعت محاضرة ألقاها حضرة صاحب السعادة فؤاد سراج الدين باشا على جمع من شبان الجامعة قال فيها وأجاد : " إن الشباب الذى لا تضطرم فى روحه تلك الشعلة المقدسة والذى يقنع من الحياة بما أعطت والذى لا يعمل على تنمية جسمه وعقله والذى لا يعالج أبواب الترقى والتقدم — هذا الشباب السلبى ليس بالشباب الذى تطمع مصر فى بقائه أو تأمل الخير على يديه فى اليوم أو فى الغد ، وعليكم أنتم يا شباب الجامعة استئصال هذا السوس الذى يخر فى عظام الأمة فانتم قادة شبابها وأنتم العدة وأنتم الأمل " .

فليهيئ كل شاب نفسه ليكون رجلا كامل الرجولة مواطنا سليم الوطنية أبا صحيح الأبوة انسانا سليم الجسم والذهن مثابرا على تهذيب مواهبه وتثقيف عقله وزيادة معارفه محافظا على مبادئ الدين والفضيلة مشرئب العنق إلى العلا والغايات السامية نافرا من كل ما يسىء الى صحته وسمعته ومواهبه .

سيداتى . سادتى

لا أرى أن اختم محاضرتى بخير مما تفضل حضرة صاحب الجلالة الملك فالقاه على الشباب من نصائح غالية وعظات سامية . خاطب حفظه الله أوائل خريجى الجامعات والمعاهد عندما تشرفوا بالضيافة الملكية فى سراى عابدين قائلا :

«أما مصر التى كانت فقد تولى التاريخ الكلام عنها والتغنى بآثارها . وأما مصر التى ستكون فأنتم المسئولون عنها وإنها لأمانة فى أعناقكم فلا تجعلوا المشئومة التاريخ فيكم اقل روعة من المشئومة فى أجدادكم .

أنتم حملة المشاعل وكثيرون ينتظرون الضوء الذى تحملون ليهتدوا به فى طريق الحياة، فلا تطيلوا انتظارهم وانفعوا بعلمكم وانتفعوا وليكن لكم من دينكم ووطنيتكم وإيمانكم وأمانتكم حصانة تقيكم من الزلل .

ارفعوا المشاعل فوق الطريق ولا تجعلوها نارا تحرق بل اجعلوها نورا يضيء، وعلى بركة الله سيروا فى طريقكم، وهذه يدى فى أيديكم تساهم فى العمل معكم يد قوية لا لأنها يد ملك ولا لأنها يد شاب ولكن لأنها يد مصرى يؤمن بمصريته» .

وقال حفظه الله وأيد ملكه فى رسالته الملكية الى الشباب :

"ان مصر تدخركم لها فلا تدخروا فكرة ولا عاطفة ولا طاقة فى سبيلها. لا تعرف ولا تعرفون ماذا تهيء لكم الأيام ولكن الذى نعرفه وتعرفونه هو أن تكونوا دائما مؤمنين بربكم وحقوق بلادكم مخلصين فى وطنيتكم معتزين بمصريتكم .

ليس مقدرا لكل انسان أن يكون علما فى بلاده ولكن حقا عليه أن يكون خادما أمينا لبلاده فاجعلوا مصر قبلتكم واجعلوا الأمانة فى خدمتها رسالتكم فاذا بسمت لكم الآمال فليكن فى سبيل مصر تحقيقها ، واذا واجهتم الآلام فليكن فى سبيل مصر احتمالها ، وامضوا فى طريقكم تحف بكم عناية الله" .

توفيق دوس باشا

لا تقربوا النيل، إن لم تعملوا عملا

فمأوه العذب لم يخلق لكسلان

(اسماعيل صبرى باشا)